وزارة التعليم العالي وبحث العلمي .
جامعة اكلي محند اولحاج
البويرة
تخصص دراسات أدبية

عنوان المذكرة

أسلوب الشطارة في حكايات جحا

مذكرة لنيل شهادة ليسانس تخصص ادب عربي

تقديم الطلبة:

شلالي ياسين

سالمي محمد امين

شنوفي عبد الباقي

وشفون حسان

تحت إشراف الأستاذ :

سالم بن لباد

السنة الجامعية 2018/2017

شكر و تقدير

نشكر الله عز وجل على إتمام هذا العمل ونتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدنا من قريب أو بعيد في انجاز هذا العمل

إلى كل الأساتذة الكرام في كل الأطوار التعليمية ونتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ سالم بن لباد الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث فجزاه الله عنا كل خير فله كل التقدير والاحترام.

اهداء

إلى أحب الخلق إلى قلبي إلى من هو أغلى من أهلي ومن نفسي الذي بعثه الله في هذا الكون نهارا مطويا على أسرار الليل فعرف الدنيا السلم والمحبة والحنان والخير والإحسان الذي شربت من كأس هدايته فألبسني تاج السعادة الى حبيبي وقرة عيني سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم

إلى من أخاطا خيوط التضحية والمعاناة وعلماني معنى التسامح إلى أمي وأبي الغاليين أطال الله في عمرهما

إلى من جمعني معهم مشوار الحياة الجامعية فكانوا خير من حملت معهم لواء الصداقة والفت فيهم طريق الرشد أصدقائي وزملائي وبالأخص

ألى من شاركوني في هذا العمل المتواضع وكانوا خير الرفقاء حنان وايمان رفيقة دربي .

فهرس الموضوعات

مقدمة	أ
الفصل الأول	
المبحث الأول: جحا – الرمز	2
1–2 من يكون جحا	3
1–3 جحا والإبداع الجمعي	3
1–4 جحا / حريّة للنقد والسخرية	5
المبحث الثاني: النموذاج الجحوي في الادب العربي	6
1–2 جحا العربي	6
المبحث الثالث شخصية جحا بين الواقعية والرمزية	9
الفصل الثاني	
المبحث الأول : رواية الشطارية	17
1. الدلالات اللغويَّة والاصطلاحيَّة	17
2 تأثُّر الرواية البِيكارِسْكية بالأدب العربي القديم	18
3. الخيال البِيكارِسْكي في الأدب العربي الحديث	19
المبحث الثاني القناع السياسي والاجتماعي في طرائف جحا :	
1– القناع السياسي	20
2–القناع الاجتماعي	22
3–لجانب النقدى فى نوادر جحا	23
4– نماذج من النوادر ومغزاها الاجتماعى	27
خاتمة عامة	36
قائمة المراجع والمصادر	39

مقدمة

مقدمة

إن اقتفاء الآثار التاريخية و الشعبية التي رسّختها شخصية غنيّة الحضور في موروثنا الثقافيّ العربيّ كشخصيّة (جحا) ليس بالأمر السّهل كما نتصوّر ، حيث تكتنف المسألة عدة أبعاد جوهريّة تتقاطع مع طبيعة الشخصيّة التي نتعرض لها ونحن ننقّب في مضمونها الملتحم بالواقع وصلته الجغرافية بالذات ، فمن البديهيّ هنا أن (جحا) بكلّ تراثه الغنيّ في الثقافة العربيّة ، يعدّ شاهداً على عصره في تقلّب الأحوال . البساطة و الهدوء والصبر ، سعة الحيلة أو مواجهة وجع الواقع بالحنكة ، جلّها تعدّ من مفردات هذه الشخصيّة المتفرّدة في مضمونها الداخليّ و الخارجيّ . جحا وما تركه لنا من آثار في المخيّلة الشعبيّة و الوجدان الجماهيريّ العربيّ من المحيط إلى الخليج ، إذ صارت الألسن من قديم الزمن تتناقل المِلَح في صيغ مختلفة تكاد تتفق في المحتوى العام وهي تضع (جحا) في مواضع عديدة لا نعرف أصالتها من حيث الحدوث من عدمه ، هذا بالطبع مع الأخذ في الاعتبار أن هناك حالة (خَلْق) توازي فعل الإضافة و التأليف تسرّبت إلينا من التبادل و التفاعل الثقافيّ مع ثقافات شعوب أخرى نقلت مروياتها شفاهياً تارة وكتابةً تارة أخرى حتى بات تقصّي الصحيح منها و المختلق عصيّ الاقتفاء نظراً لقلة المصادر التاريخية و شحّة الدرس البحثيّ المفضي إلى إنصاف هذه الشخصية ونبش حياتها وفكرها وعرض مختلف جوانبها الحياتية .

وعليه تحاول هذه الورقة البحثية أن توضّح جحا " الرمز " بين التاريخ والأدب الشعبيّ وذلك من أجل التعريف بهذه الشخصيّة المهمة لإزالة الغموض عنها قدر المستطاع.

في هذا الصدد علينا ضرورة توضيح () جحا في الأدب الشعبيّ () حقيقة جحا من خلال ما ورد في الكتب والمراجع العلميّة المتاحة .. جحا ورمزية حضوره في التراث العربيّ ، والمحليّ بشكل خاص ، وذلك حتى يصبح حديثنا واضحاً للقارىء والمستمع والباحث، وليعرف أكثر عن جحا هذه الشخصية الملتبسة أو الضبابية التي لا تكاد تبين من كل هذا التداخل التاريخي الذي أثرى وأثّر على رؤية الباحث العربيّ ، المهتم بتراثه الثقافي.

قبل أن ننطلق علينا أن نحدّد بعض الاسئلة ..

من هو جحا ؟ هل ما نسمعه من نوادر صدرت من جحا نفسه ؟ لماذا يتخذ الناس جحا " رمزاً " ؟ () هل لجحا بصمة في التراث الشعبيّ البحرينيّ بشكل خاص؟

الفصل الأول شخصية جحا

المبحث الأول: جحا – الرمز

الأدب الشعبيّ هو الأدب الذي يصدره الشعب ، وهو غنيٌّ بالمغزى والرموز ، وهو ككلّ عملية إبداع ، يصدر عن فرد ، إلا أنه لا يحمل طابع الشعبيّة إلا إذا تبنته الجماعة ، فيصبح بذلك معبِّراً عن وجدانها ، حاملاً خبرتها وتجاربها ، راصداً تطوّرها، عاكساً اتجاهاتها ، ويتضمن : الأغاني ، الأساطير ، الأمثال ، الحكايات ، النوادر ، السير ... إلخ .(1) تم تناول شخصية جحا بين الواقع التاريخيّ والرمز الفني، وذلك من خلال شخصيّة جحا العربيّ، والتركيّ، والمصريّ فيقول عن جحا المصري: لعل النموذج الجحوي لم يلق من الذيوع والانتشار في العالم العربيّ مثلما لقي في البيئة المصرية، على الرغم من أنه شخصيّة غير مصرية، وإنما عرفته البيئة المصرية رمزًا فنيًّا منقولًا إليها، له أسلوب فنيّ مميّز في الحياة والتعبير، في إطار فنيّ أثير لدى الشخصيّة المصريّة، والمزاج المصريّ، هو إطار السّخرية والتندّر والفكاهة، فتلقفته نموذجًا فنيًّا وشعبيًّا(1).

" جحا " شخصيّة فكاهيّة دخلت الحكايات الشعبيّة الجزائريّة عن طريق التلاقح الثقافيّ حيث انتشرت في كثير من الثقافات القديمة ونسبت إلى شخصيّات عديدة عاشت في عصور ومجتمعات مختلفة، ويرمز به عادة للدّهاء والذكاء الخارق الذي لا يضاهى وقد صار اسمه في الحكايات الشعبيّة الجزائريّة " بجحا الجزائريّ" ونجد له نظيرًا في الثقافات العربية والأجنبية مثل العراق، تركيا وبلاد الشام.(2) وفي ضوء غلبة الرمز الفنيّ على الواقع التاريخي للنموذج الجحوي في الأدب العربيّ ، غاب عن بال الكثير من القرّاء أن جحا العربيّ شخصيّة حقيقية ذات واقع تاريخيّ ، وأن نسبه ينتهي به إلى قبيلة فزارة العربيّة .. إذ ولد في العقد السادس من القرن الأول الهجري وقضى الشطر الأكبر من حياته في الكوفة .. وبذلك تخبرنا كتب التراث العربيّ ، وبخاصة كتب الأدب والتراجم والسير.(3) ، ومثلما تردّد اسم جحا في بعض مؤلفات القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة فإنّه تردّد أيضاً في بعض مؤلفات القرن السادس وأنه لا يزال ذائع الصيت ، حتى لنجد الميدانيّ الذي (توفي

1علي هاشم ، أنتروبوس –الضحك والفكاهة الشعبية – مقاربة ،: الموقع العربي الأول في الأنثروبولوجيا والسوسيوأنثروبولوجيا ،ص110

2 المرجع نفسه

3هاشمي سعيد يسرد جزايرس، شخصيات شعبية جحا رمز الدهاء ، نشر يوم 09 – 07 – 2012، محرك بحث أخباري" الكتروني" ص12

في سنة 518 هـ) في " مجمع الأمثال " يدون – من أمثال عربية في الحمق، هذا المثل .. " أحمق من جحا ".(1)

1-2 من يكون جحا

جحا هو (دجين بن ثابت) وأورد ابن حجر في (لسان الميزان) ترجمة لمحدّث من أهل البصرة اسمه (دجين بن ثابت اليربوعي) وكنيته (أبو الغصن) (130هـ – 747م). يضرب به المثل في الحمق والغفلة ، كانت أمه خادمة لأم (أنس بن مالك) ، وفي فهرست (ابن النديم) من الكتب المصنفة في أخبار المغفلين (نوادر جحا) وهذا غير كتاب (نوادر جحا) المطبوع بمصر وبيروت المترجم عن التركيّة المنسوبة أخباره إلى جحا الرومي المعروف (بخوجة نصر الدين) ، وقد دخلت حكايات نوادر جحا العربيّ في جملة ما ترجم إلى التركيّة من كتب العرب.(6 (الأكثر عجبا أن هناك أممًا أخرى يدّعون أن أصل نسبه ينتمي إليهم وأكثر من ينافح بأنه منهم، الفرس والأتراك والأرمن الأتراك صنعوا له تمثالًا كبيرًا في تركيا لإصرارهم أنه منهم .

فليكن جحا من أي جنسية كانت يكفينا أنّ نستمتع بنوادره وحكاياته المختلفة وطبائعه المتناقضة .(2)

1-3 جحا والإبداع الجمعي

على الرغم من محاولات بعض الباحثين المحدثين تحديد شخصية جحا، فإن المرحوم عباس العقاد يقول فى كتابه (جحا الضاحك المضحك) : " شيء واحد ثابت كل الثبوت فى أمر جحا. ذلك الشيء الثابت – قطعا – أنه لم يكن جحا واحدا ، ولا يمكن أن يكونه لأن النوادر التى تنسب إلى جحا لا تصدر من شخص واحد".(3) يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن

1محمد رجب النجار ، جحا العربي ، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، 1989 ، ص 17

2محمد رجب النجار ، جحا العربي ، الطبعة الثانية ، 1989 ، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 24

3سامر محيي الدين ، موسوعة قصص وطرائف ونوادر العرب، ، الطبعة الأولى ، 2004، دار عالم الثقافة، الأردن .ص 257

شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس في صدر الإسلام ، وبعضها يتحدث عن أناس في عصر المنصور العباسي أو عصر تيمور لنك أو ما بعده من العصور بأجيال.. ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد لاختلاف الشخصيات التي تصورها في مجموعها ، فمنها ما يكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذي يكشف عن الغفلة ويتندّر على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تتمثل فيه الحماقة بغير مراء ، ومنها ما يتحامق ويبدو في كلامه وتمثيله أنه يتكلف ما يعمل وما يقول استهزاء منه بمن يدّعون الحكمة والذكاء.(1)

لقد ازدهر الأدب الجحوي بعد النهضة الشرقية الحديثة ، فظهرت المؤلفات عنه على مناهج شتّى ، يقتبس بعضها من نوادره للأغراض التعليمية ، ويستخدم بعضها هذه " الشخصية " لأغراض النقد الاجتماعي على طريقة جحا في التحامق والحكمة التي تجري على ألسنة المجانين، ويعني بعضها بالإحصاء التاريخي والاستقصاء في تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار في الأدب الجحوي بعد عصر النهضة الحديثة إلى العناية بإحياء الآثار السلفية كما يرجع إلى شيوع النقد الاجتماعي بإسلوب الجدّ والفكاهة.(2) وعلى الرغم من أصالة الشخصية الجحوية في أدبنا الشعبي – من حيث الواقع التاريخي – لم يكن كلّه من تأليف أو إبداع جحا ، (أبي الغصن دجين بن ثابت الفزاري) بل كان تعبيراً جمعيّاً من إبداع الشعب العربي بعامة – ترسيباً للتجربة ، ونزوعاً إلى السمر في وقت معاً . فأعلن على لسان جحاه – الرمز أو النموذج أو المشجب الفني – تأملاته في الحياة والأحياء ، ومواقفه في الواقع الإنساني ، وتصوراته السياسية والاجتماعية ، ورؤيته للقيم والمثل والمعايير كما ينبغي أن تكون ، في صياغة جمالية ، توسلت فيها بقالب أو شكل فنيّ مميّز هو فن الحكاية المرحة ، أو ما عرف في بيئاتنا الأدبية باسم النوادر ، وبخاصة تلك التي اتخذت من جحا بطلاً محوريّاً لها ، وتتمثل عبقرية الفلسفة الجحوية ، أو بالأحرى عبقرية الشعب العربي في أمرين : أحدهما : في أسلوب هذه الشخصية في المواجهة ، حيث اكتشفت بعبقريتها أن المأساة يمكن أن تتحول إلى ملهاة ، في ضوء الحالة النفسية التي نواجه منها وقائع وأعباء الحياة ، فاندماج الإنسان – كما نعلم – في بؤرة الحدث أو الموقف

اقرأ المزيد من عدن الغد | جحا بين السياسة والتهريج http://adengd.net/news/30854/#ixzz4HhilX5001

2حامد طاهر ، نوادر جحا– تراث شعبى ونقد اجتماعى ، نسخة الكتروني،ص42.

يضنيه ، وخروجه وفرجته عليه يسري عنه ، وقد يضحكه ، وهكذا استطاع جحا أن يكابد الحياة ، ويضطرب فيها ، وأن يخلق من نفسه شخصاً آخر بعيداً عن الأول ، يتفرج عليه ويسخر منه. وهكذا تحولت المآسي عنده إلى طرائف ومِلح – ذات طابع إنساني – تخفف عنه وتسري عن أفراد الشعب العربي تأسياً به ... والآخر في " تنميط " هذه الشخصية .. فلم يكن الحمق أو الغباوة السمة الغالبة عليه ولكنه التحامق أو الذكاء الباحث عن جوهر الحقيقة .(1

1-4 جحا / حريّة للنقد والسخرية

يخطئ مَنْ يظن أن التراث الشعبي – باعتباره سجلّ الطبقات الفقيرة والمطحونة والمهمشة – خال من النقد والسخرية وإثارة الضحك ، لأنه في الواقع يحتوى على الكثير منها ، بل إنها تتميّز فيه بمقدار أكبر من الحريّة ، لكنها الحريّة التي تخلو من ذكر أسماء أصحابها . وهذا أمر طبيعي . فالذين كانوا يوجّهون النقد أو يستخدمون السّخرية لم يكن من السهل عليهم أن يعلنوا عن أنفسهم خوفًا من التنكيل والتضييق ، ولذلك كانوا ـ كما يفعل منتجو النكتة في عصرنا الحاضر – يطلقونها ثم يختفون . ومن المؤكد أن أصدقاءهم وجيرانهم كانوا يعرفونهم جيدا ، لكنهم كانوا أيضا يحافظون على أرواحهم .. التى لم يكونوا يملكون سواها ! وهذا ما ينطبق ببساطة على نوادر جحا ، وعلى شخصيته العجيبة ، التي وجدت في التراث الشعبي لدى كل من : العرب ، والأتراك ، والإيرانيين، والاكراد ، والبلغار ، والأرمن ، واليوغسلاف ، والمالطيين ، والإيطاليين .. كما أنها عبرت مختلف العصور ، حتى نسبها بعض المؤرخين العرب إلى أحد التابعين ، أي في القرن الهجري الأول ، واستمرت في النزول خلال عهد الأمويين ، ثم العباسيين ، ثم العثمانيين ، والمغول ، والمصريين .(2)

1عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ص 96

2هشام بنشاوي ، بلاغة السخرية في تراثنا العربي ، دراسات ، مجلة البحرين الثقافية ، العدد 84 ، ابريل 2016،ص 120

المبحث الثاني: النموذاج الجحوي في الادب العربي

2-1التراث البحرينيّ والرمز جحا:

إنّ لجحا اسماً كبيراً وحضوراً مدهشاً في البحرين . الرجل الذي حفظ الناس حكاياته الحكيمة والظريفة، حظي باهتمام أهل البحرين قديماً وحديثاً. وبعيداً عن أصله ومن أي البلاد هو، صاحب البحرينيون جحا، حتى عدّوه واحداً منهم يعيش بين ظهرانيهم، ونسجوا له من القصص، ما يوافق بيئتهم، بل زادوا وأضافوا الكثير من المقالب والمواقف، ما جعله يفوز بالقدح المُعلّى من الاهتمام والإكبار. أمر مدهش بالفعل أن تعيش شخصية كل هذا البهاء!. لقد استطاعت أن تدخل مجالي التراث والأدب من أوسع الأبواب، وأن تنسخ منها شخصيات شتّى، وأن تنسج لها حكايات هي الآن سلوة السمار في مجالسهم، وأداة المعلمين في دروسهم، ومنبع الكُتّاب في إبداعهم!.1

في البحرين شاعت النوادر الجحوية ، وها نحن اليوم نسمع بعض الأمثال المتداولة بين البحرينيين ، تلك الأمثال التي هي عنوان لبعض النوادر وتجري مجرى المثل الشعبي منها مثلاً

2-2 جحا العربي

على كثرة أعلام الفكاهة في التراث العربي، فإن

جحا، من بينها، يبقى أشهر شخصية نمطية فكاهية، لا تزال حيّة فاعلة حتى اليوم في الذاكرة الجمعية العربية، الأدبية والفولكلورية والثقافية، وقد بلغت حداً من الشهرة والذيوع والاستمرارية، على مر العصور واتساع العالم الإسلامي، جعلت واقعها الفني يطغى على وجودها التاريخي الذي يؤكد أن جحا شخصية حقيقية، واسمه أبو الغصن دُجَيْن بن ثابت الفزاري، وكنيته جحا، وأنه عرف بين معاصريه بالطيبة والتسامح الشديدين، وأنه كان بالغ الذكاء. تنطوي شخصيته على حسٍ عال بروح السخرية والفكاهة، ووسيلته إلى ذلك ادّعاء الحمق والجنون، أو بالأحرى التحامق والتبالُه في مواجهته صغائر

1حامد طاهر ، نوادر جحا- تراث شعبى ونقد اجتماعى ، نسخة الكترونية ،ص44

الأمور اليومية، وقد شهدت الحقبة التاريخية التي عاصرها جحا أحداثاً جساماً كان لها أبعد الأثر في أسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير.1

وقد حدث أن استدعى أبو مسلم الخراساني، عندما

نزل الكوفة، جحا لشهرته، عسى أن يظفر منه بطرفة أو فكاهة في خضم حروبه الدموية، فخشي جحا على نفسه وادعى الحمق والجنون في حضرته، ومع ذلك أعجب به أبو مسلم، وحدّث

عنه الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، الذي بادر فاستدعاه إلى دار الخلافة في بغداد **لعله يصلح نديماً أو مضحكاً (مهرجاً) في بلاطه، وقد أدرك جحا عاقبة هذا الأمر ومخاطره وقيوده،** فتمادى في ادعائه الحمق والجنون حتى أفرج عنه المنصور بعد أن أجزل له العطاء وكان لمثل هذا اللقاء أثره البالغ في ازدياد شهرته، وهنا قال جحا مقولته المشهورة: «حمق يعولني خير من عقل أعوله».(2)

وشرع اسمه يتردد في أدبيات القرنين الثاني

والثالث للهجرة، مقروناً ببعض النوادر، كما ذكر الجاحظ، ولكن ما نكاد نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى تكون نوادره المتواترة شفاهياً قد عرفت طريقها إلى التدوين في أسواق الوراقين باسم «كتاب جحا» الذي كان من الكتب المرغوب فيها على قول النديم في الفهرست. ومن أقدم التراجم التاريخية التي وصلت عن جحا، الترجمة الضافية التي ذكرها الآبي منصور بن الحسين غير أن النقلة النوعية الكبرى في حياة هذا النموذج الجحوي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، كانت عندما دخل العرب تحت السيادة العثمانية، حيث استهوى الأتراك آنذاك هذا النموذج الجحوي العربي، فقاموا بنقل نوادره وترجمتها إلى التركية، ونسبتها إلى شخصية تركية شبيهة بالنموذج العربي، اشتهرت أيضاً بميلها للدعابة، وجنوحها إلى السخرية هي شخصية «الخوجة نصر الدين» الذي كان معلماً وفقيهاً وقاضياً. وقد قُدِّر له أن يلتقي، تاريخياً، تيمورلنك الطاغية المعروف. وأن تكون بينهما من المواقف والطرائف ما يعكس حمق هذا الطاغية وظلمه وجبروته إزاء المستضعفين أفراداً وجماعات.

1جعفر الديري ، جحا عاش في البحرين ، صحيفة الوطن – العدد 3304 السبت 27 ديسمبر 2014،ص15.

2حسن السبع ، وين إذنك يا جحا ! ، العربية ، الأربعاء 08 جمادى الأولى 1434هـ – 20 مارس2013م،ص52.

ومن جراء اتصال الثقافتين الإيرانية والتركية
إبان العصور الوسطى (وبالمناسبة لكل شعب جحاه) ادّعى الإيرانيون أيضاً لأنفسهم هذه الشخصية، وأطلقوا عليها اسم «الملاَّ نصر الدين» وزعموا أنها إيرانية ونسبوا إليها النوادر الجحوية، التركية والعربية معاً، فازدادت هذه الشخصية الفكاهية شهرة وذيوعاً في تركية وإيران، إلى جانب شهرته العربية بطبيعة الحال بوصفه النموذج الأصل. وغدت هذه النماذج الجحوية الثلاثة جزءاً من التراث الشعبي الإسلامي، وانتقلت هذه النوادر إلى الآداب العالمية، خاصة في إفريقية وأوربة وروسية وبلاد البلقان والصين وغيرها. (1)
وقد انتشر النموذج الجحوي إلى سائر الأقطار
العربية، فانتشرت نوادره فيها جميعاً، بل صار كل قطر عربي يدعيه لنفسه، حتى بات هناك جحا المصري، وجحا الليبي، وجحا السوري، وجحا العراقي. واختلط الأمر على المثقفين العرب، ودبجوا الكتب والمقالات في جحا الإقليمي، دون أن ينتبهوا أو يتبينوا أصوله العربية القومية الأساس. لكن الدراسات الفولكلورية المعاصرة أثبتت أنه ما اوتتمثل عبقرية الفلسفة لجحوية أو بالأحرى
عبقرية الشعب العربي الذي أبدع هذه الشخصية الجحوية في أمرين: أحدهما في أسلوب هذه الشخصية في المواجهة، حين اكتشفت بعبقريتها أن المأساة يمكن أن تتحول إلى ملهاة، في ضوء الحالة النفسية التي نواجه منها وقائع الحياة، فاندماج الإنسان في بؤرة الحدث أو الموقف يضنيه، وخروجه منه وفرجته عليه يُسرِّي عنه، وقد يضحكه، وهكذا استطاع جحا أن يكابد الحياة، ويضطرب فيها، وأن يخلق من نفسه شخصاً آخر بعيدا عن الأول، يتفرج عليه ويسخر منه. وهكذا تحولت المآسي عنده إلى طرائف وملح ذات طابع إنساني تخفف عنه وتسري عن أفراد الشعب العربي تأسياً به.
وقد صنّف القدماء النوادر الجحوية المدونة في قسمين كبيرين أحدهما نوادر الحمق والجنون، حيث الحمق أو الجنون هنا تعبير دلالي يستدعي نقيضه (فضيلة الذكاء والتعقل)، والآخر نوادر الذكاء. ولكن المحدثين ذهبوا إلى تصنيف المأثور الجحوي الشفاهي والكتابي، طبقاً لمحتواه الدلالي:

1حياة الياقوت ، مقال" يا جحا أين أذنك؟" والوقوع في فخ الإيقاع !، دار ناشري للنشر الالكتروني،ص70.

المبحث الثالث شخصية جحا بين الواقعية والرمزية

وعلى الرغم من كثرة أعلام الفكاهة في التراث العربي، فإن جحا يبقى أشهر شخصية نمطية فكاهية، لا تزال حية فاعلة حتى اليوم في الذاكرة الجمعية العربية،الأدبية والفولكلورية والثقافية. وشهرته الفنية لا تلغي الدور التاريخي الذي يؤكد أن جحا شخصية حقيقية. فهو أبو الغصن دُجيْن بن ثابت الفزاري، ولقبه جحا، وقد عرف بين معاصريه بالطيبة والتسامح الشديدين، وأنه كان بالغ الذكاء، وتنطوي شخصيته على قدر كبير من السخرية والفكاهة. ووسيلته إلى ذلك ادعاء الحمق والجنون، أو بالأحر بالتحامق والتباله في مواجهته لصغائر الأمور اليومية، استعلاء منه على حياة فانية،وشعورا بعبثية الصراع الدنيوي، وإحساسا بالجانب المأساوي للوجود الإنساني (الموت) في وقت معا. ولذلك لا غرو أن يعمر جحا، وأن يعيش مائة سنة، كما يقول الجاحظ. وقد شهدت الفترة التاريخية التي عاصرها جحا أحداثا جساما كان لها أبعد الأثر في أسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، منها مأساة السقوط الدموي للدولة الأموية،وهيمنة الدولة العباسية بقوة السيف على مقدرات الأمور العربية الإسلامية، وسط مناخ ثقافي حافل آنذاك بالصراع السياسي والعسكري والمذهبي والعرقي. (1) في مثل هذه الظروف التاريخية الاجتماعية حدث أن استدعى أبو مسلم الخراساني عندما نزل الكوفة جحا لشهرته، عسى أن يظفر منه بطرفة أو فكاهة في خضم حروبه الدموية، فخشي جحا على نفسه، وادعى الحمق والجنون في حضرته. وبالرغم من ذلك فقد أعجب به أبو مسلم، وحدث عنه الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، الذي بادر فاستدعاه إلى دار الخلافة في بغداد لعله يصلح نديما أو مضحكا (مهرجا) في بلاطه. وقد أدرك جحا عاقبة مثل هذا الدور وهامشيته ومخاطره وقيوده، فما هو بمهرج وما ينبغي له أن يكون كذلك. فتمادى في ادعائه الحمق والجنون حتى أفرج عنه المنصور بعد أن أجزل له العطاء. وكان لمثل هذا اللقاء أثره البالغ أيضا في ازدياد شهرته، وطلب الناس له في مجالسهم، والإغداق عليه. وهم سعداء به وبنوادره، وبرؤيته الساخرة للحياة والأحياء جميعا، وهنا قال جحا قولته الساخرة المشهورة: "حُمْق يعولني خير من عقل أعوله ."ومن الطريف الدال على أن جحا استمرأ هذا الأمر التغابي أو التحامق ما دام يعفيه من تبعات الناس، ويتيح له قدرا

1المسيلة نيوز ، قصص قصيرة148=cat?/http://www.almiseelanews.com /

كبيرا من الشجاعة في قول الحق، وحكمة الرأي وأن يكون صريحا في التعبير عن نفسه، أنه دائما يستسلم لرغباته في لحظاته، وإنْ اتهمه الناس بالحمق والجنون فليس ثمة عندئذ من حرج مما يجعله بريئا من الخوف أو الكبت وقادرا على قول "المسكوت عنه" دائما، اجتماعيا وأخلاقيا وسياسيا وإنسانيا .وشرع اسمه يتردد في أدبيات القرنين الثاني والثالث للهجرة، مقرونا ببعض النوادر، كما ذكر الجاحظ، ولكن ما نكاد نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى تكون نوادره المتواترة شفهيا قد عرفت طريقها إلى التدوين في أسواق الوراقين باسم كتاب نوادر جحا الذي كان من الكتب المرغوب فيها على حد تعبير ابن النديم في الفهرست. ومن أقدم التراجم التاريخية التي وصلت إلينا عن جحا، تلك الترجمة الضافية التي ذكرها الآبي (المتوفي سنة 421هـ، 1030م) في موسوعته نثر الدرر. ثم توالت التراجم له في كثير من المصادر الأدبية والتاريخية اللاحقة(1) .

وعلى الرغم من أنها أجمعت على الوجود التاريخي لهذه الشخصية، فإنها أنكرت عليه كل ما روي عنه من نوادر بلغت من الكثرة حدا يستحيل زمانا ومكانا أن تكون جميعا متصلة به، بل ذكر الآبي صراحة: "أن له جيرانا كانوا يضعون عليه هذه النوادر" أي يؤلفونها وينسبونها إليه، بل أضافوا إليه أيضا كما يقول نوادر غيره من نوادر الحمقى والمغفلين والأذكياء وعقلاء المجانين وأمثالها من النوادر الذائعة في التراث العربي. وهذا يعني أن الوجدان الشعبي العربي قد انتخب جحا رمزا لكل ضروب الفكاهة،خاصة بعد أن تزيد الناس عليه، فنسبوا إليه، على مر العصور، آلاف النوادر حتى ليقول عباس محمود العقاد في كتابه جحا الضاحك المضحك عبارة طريفة ذات دلالة،هي أن جحا لو تفرغ في حياته لصناعة النوادر التي نسبت إليه، لمات قبل أن تنفد روايتها أو ينتهي هو من إبداعها. ومعني هذا أن جحا انفصل عن واقعه التاريخي وتحول إلى رمز فني استقطب معظم ما قيل من نوادر التراث العربي، الذائعة، وما أكثرها! بل شرع الشعب العربي، على تعدد أقطاره، يؤلف ما يؤلف من نوادر وينسبها إلى جحا على مر العصور. (2)

1عبدالله الهدلق ، الحمار رمز الفلسفة والحكمة الإنسانية ، الوطن – موقع تلفزيون الوطن http://alwatan.kuwait.tt/articledetails.aspx?id=187579 .

2أحمد علي عولقي عدن الغد | جحا بين السياسة والتهريج http://adengd.net/news/30854/#ixzz4Hhh8elKO

وهذا يعني أن المأثور الجحوي الذي لايزال يتنامى حتى اليوم، لم يكن بداهة من تأليف جحا أو إبداعه، بل كان تعبيرا جمْعيا من إبداع الشعب العربي بعامة،ترسيبا للتجربة ونزوعا إلى السمر في وقت ما. فأعلن المجتمع الشعبي على لسان جحا تأملاته في الحياة والأحياء، وجسد تصوراته السياسية والاجتماعية والدينية، بما في ذلك "المسكوت عنه" وصاغ رؤيته للعالم، ونظرته للقيم والمثل العليا، كما ينبغي أن تكون، وذلك في صياغة أدبية جمالية، ذات قالب سردي أو شكل فني متميز هو فن الحكاية المرحة أو ما عرف في تراثنا الأدبي باسم النوادر.

غير أن النقلة النوعية الكبرى في حياة النموذج الجحوي تحققت في القرن العاشرالهجري (السادس عشر الميلادي)، عندما دخل العرب تحت السيادة العثمانية، حيث استهوى الأتراك آنذاك هذا النموذج الجحوي العربي، فقاموا بنقل نوادره وترجمتها إلى التركية، ونسبتها إلى شخصية تركية شبيهة بالنموذج العربي، اشتهرت أيضا بميلها للدعابة، وجنوحها إلي السخرية، وحبها للفكاهة، هي شخصية الخوجة نصر الدين،الذي كان معلما وفقيها وقاضيا. وقد قُدر له أن يلتقي تاريخيا بتيمورلنك الطاغية المعروف؛ وأن تكون بينهما من المواقف والطرائف ما يعكس حمق هذا الطاغية وظلمه وجبروته ضد المستضعفين أفرادا وجماعات . وفي ضوء اتصال الثقافتين الإيرانية والتركية إبان العصور الوسطى، ادعى الإيرانيون أيضا لأنفسهم هذه الشخصية، وأطلقوا عليها اسم المُلا نصر الدين وزعموا أنهاإيرانية لا تركية، ونسبوا إليها النوادر الجحوية، التركية والعربية معا، فازدادت هذه الشخصية الفكاهية ثراء وشهرة وذيوعا في تركيا وإيران،إلى جانب شهرته العربية بطبيعة الحال لكونه النموذج الأصل. وغدت هذه النماذج الجحوية الثلاثة جزءا من التراث الشعبي الإسلامي، وعبر هذا التراث عربيا وتركيا وفارسيا استطاع جحا العربي أن يعرف طريقه، باسمه وبنوادره معا أوبنوادره دون اسمه، إلى الآداب العالمية، خاصة في إفريقيا وأوروبا وروسيا وبلاد البلقان والصين وغيرها. وذلك في الوقت الذي تجاهلت فيه ثقافتنا الرسمية السائدة حديثا هذا النموذج الفني الإنساني، وغابت عنا أصوله العربية خاصة عندما شرع الناشرون العرب في طباعة كتب التراث العربي، فذكروا في فهارسها كلما ذكر جحا العربي أنه المعروف باسم الخوجة نصر الدين. ولما جمعوا هذه النوادر في كتب مستقلة أذاعوها بين الناس تحت عنوان نوادر جحا الكبرى الشهير بنصرالدين خوجة إما جهلا بأصوله العربية ونوادره الذائعة

في كتب التراث العربي المدونة قبل ظهورالدولة العثمانية ذاتها، وهو الأرجح، وإما مجاملة لثقافة الطبقة التركية السائدة خلال القرون الأربعة الأخيرة التي كان العالم العربي فيها تابعا للخلافة العثمانية .ولما كان المجتمع الشعبي العربي لا يحفل بتراثه الشعبي إلا بقدر ما يحقق له هذا التراث من وظائف حيوية، فكرية وجمالية، فإنه ظل يردد في موروثه الشعبي الشفهي نوادر النموذج الجحوي العربي، بل صار كل قطر عربي يدعيه لنفسه، حتى بات هناك جحا المصري، وجحا الليبي، وجحا السوري، وجحا العراقي، وهكذا. واختلط الأمر على المثقفين العرب، ودبجوا الكتبالعربية القومية الأساس. لكن الدراسات الفولكلورية المعاصرة أثبتت أنه ما من قطرعربي إلا وعرف النموذج الجحوي (العربي / القومي) بسمْته وملامحه، وأسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، فعرف فيه "صمام أمان وعصا توازن" في خضم تحدياته ومعوقاته وتمثّل نوادره زادا فنيا ونفسيا بعيد الأثر قد يدفعه إلى الابتسام والسخرية،وقد يدفعه إلى الضحك والدعابة، لما فيها من انحراف عن المألوف أو تلاعب باللفظ أوخطأ في القياس. ولكننا لو تجاوزنا قشرتها الخارجية، وتأملناها من الداخل لوجدناها وسيلة حيوية من وسائل الدفاع عن الذات العامة، مؤكدة بالتناقض الظاهر أو الخفي القيم الإنسانية العليا، والغايات القومية، التي تعمل الجماعة أو الأمة العربية علىتحقيقها. وهذا الدور الوظيفي للنوادر في الثقافة الشفهية أقرب ما يكون إلى الدورالذي يلعبه الكاريكاتير المعاصر، في الثقافة والصحافة المعاصرة. والمقالات في جحا الإقليمي، دون أن ينتبهوا أو يتبينوا أصوله وتتمثل عبقرية "الفلسفة الجحوية" أو بالأحرى عبقرية الشعب العربي الذي أبدع هذه الشخصية الجحوية، في أمرين: أحدهما في أسلوب هذه الشخصية في المواجهة، حين اكتشفت بعبقريتها أن الماسأة يمكن أن تتحول إلى ملهاة، في ضوء الحالة النفسية التي نواجه منها وقائع وأعباء الحياة، فاندماج الإنسان كما نعلم في بؤرة الحدث أو الموقف يضنيه، وخروجه منه وفرجته به يسري عنه، وقد يضحكه، وهكذا استطاع جحا أن يكابد الحياة، ويضطرب فيها، وأن يخلق من نفسه شخصا آخر بعيدا عن الأول، يتفرج به ويسخرمنه. وهكذا تحولت المآسي عنده إلى طرائففنيالأدبي. والآخر، في "تنميط" هذه الشخصية. فلم يكن الحمق أو الغباء السمة الغالبة عليه، ولكنه التحامق أو الذكاء الباحث عن جوهر الحقيقة. ولهذا لم يكن جحا مخبولا أو ناقص العقل كما يتوهم ولكنه كان الإنسان الذي يتناول الأمور مهما بدت معقدة أو تظاهرنا نحن بتعقيدها من أقرب الزوايا إلى الحق والواقع، فيبدو مناقضا

لصنيع الآخرين الذين لا يتصورون الحق قريبا ويمدون أبصارهم إلى بعيد. وملح ذات طابع إنساني تخفف عنه وتسري عن أفراد الشعب العربي تأسيا به، الأمر الذي دفع الوجدان الشعبي إلى أن يسلك جحا الواقع والرمز مسلك الحكماء، في تعبيره ال ووقد ذهب القدماء إلى تصنيف نوادر جحا المدونة إلى قسمين كبيرين، أحدهما نوادرالحمق والجنون حيث الحمق أو الجنون هنا تعبير دلالي يستدعي نقيضه (فضيلة الذكاء والتعقل)، أو لغة إرشادية دالة تبوح بالمسكوت عنه (من حماقات الناس). والآخر نوادرالذكاء. ولكن المحدثين ذهبوا إلى تصنيف المأثور الجحوي الشفاهي والكتابي، طبقا لمحتواه الدلالي: فهناك النوادر السياسية التي تتناول علاقة المجتمع الشعبي بالسلطة الحاكمة (السلطان – القضاء – الأمن الداخلي) وخاصة في عصور القهر العسكري والكبت السياسي، وفي عصور التحول التاريخي والاجتماعي وما تمور به من متناقضات اجتماعية ونفسية، وانحرافات سياسية واقتصادية. والمتأمل لما أثر عن جحا من نوادر سياسية،قالها الشعب العربي على لسان جحا، يراها تشكل في مجملها أسلوبا ووظيفة بابا واسعا من أبواب النقد السياسي في الأدب العربي عامة والأدب الشعبي خاصة، فلا غرو أن يستمر احتفاء الوجدان القومي بهذه النوادر الجحوية على مر العصور، وأن يظل معتصما بها، كلما حزبه أمر أو حفزه موقف، في تلك المعركة الأزلية بين القوى السياسية والشعب الأعزل، وما ينشأ بينهما من علاقات سلبية، نتيجة حتمية لغياب القانون، وانحراف القضاء، واختلال ميزان العدالة في فترات تاريخية مختلفة. ليس فقط من قبيل نقد الوضع القائم، وفضح المسكوت عنه عندما يعزُ القول بل أيضا للقيام بدور "تعويضي" حيث النادرة السياسية هنا بمثابة "تنفيس" عن قهر سلطوي ضاغط،وتهدف إلى التخفيف من المخاوف، حيث يغدو الظالمون موضوعا للضحك والسخرية، وعندئذ يخف العداء للتسلط، نصغره فنكبر، ونحقره فنرد لذواتنا الاعتبار. فالضحك رفض للظلم،وهذه هي الوظيفة السياسية للنادرة الجحوية. ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من النوادرالسياسية الذائعة في المأثور الجحوي الشفهي الحديث لم تعرف طريقها إلى التدوين،بسبب حذر الناشرين من طباعتها ونشرها. 1

وهناك النوادر الاجتماعية، وهي من الكثرة بمكان، ولاتزال تتنامى إبداعا وتذوقا حتى الآن، وتتعاظم وظائفها الحيوية في نقد الواقع الاجتماعي، وما يمور به من سلبيات في القول

1عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ص 136

والفعل والسلوك، مما هو سائد في حياتنا اليومية. ولهذا لم تشأ الأمة العربية أن تجعل هذه الشخصية التي أبدعتها بعبقريتها سلبية أو منعزلة، وإنما جعلتها شخصية رجل عادي من الناس، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم، وآمالهم وآلامهم، عليه أنيسعى في سبيل العيش كما يسعى غيره، ويختلف إلى الأسواق، ويرحل إلى الأمصار،ويلتقي بالحكام ويتحدث إلى العامة. وهو رب أسرة، له زوج، بينه وبينها ما يكون بين الرجل وصاحبته من الأحداث والمواقف، وله معها نوادر تجسم فلسفته الخاصة في الحياة،بل تجسم ما يريده الشعب العربي من ترسيب التجربة ونقد الحياة الاجتماعية، واتصلت حياة جحا، فكان له ابن ينشئه بحكمته ويحاوره بفكاهته وسخريته، وكأنما أراد أن تمتد حياته وفلسفته أجيالا متعاقبة. بل سوف نرى أن هذه الشخصية الساخرة تؤكد بدورها وحدة الحياة عند الأمة العربية، فلم تقتصر مواقف جحا على علاقاته بالناس، وخير ما يصور ارتباط جحا بالأحياء تعاطفه مع حماره الذي ارتقى به حتى جعل منه صديقا أو شبه صديق، يتحدث إليه ويصب في أذنيه سخرياته اللاذعة من الحياة والأحياء. وبهذا يتكامل الثالوث الجحوي الشهير (امرأة جحا، ابنه، حماره

ومن الجدير بالذكر أن الشعب العربي في نقده لجوانب الحياة الاجتماعية على لسان جحا، الذي سلك في ذلك مسلك الفكاهة، إنما كان يرى في ذلك التهكم الساخر ضربا من الثأر السلمي أو القصاص العادل أو الجزاء الاجتماعي الذي تنتقم به الجماعة أو الأمة لنفسها من الخارجين على معاييرها ومثلها وقيمها، بغية الدفاع عن الذات العامة،وحفاظا على تماسكها، وتعضيدا لهويتها القومية. ذلك أن النوادر الجحوية بتركيزها على الجانب السلبي في الحياة والمجتمع، لا تنتقم أو تهجو فحسب، بل تعالج وتخفف من التوتر الداخلي، وتحد من مخاوف الجماعة أو الأمة، وتعيد اعتبار الذات للذات. (1)

ومن اللافت للنظر، أن المأثور الجحوي بعامة، لم يكن وقفا على النقد السياسي أو الاجتماعي فحسب، بل أدى وظائف أخرى، نفسية وجمالية، بالضرورة. فالنوادر الجحوية ليست إلا تعبيرا عن واقع نفسي وخارجي معا، في بنية واحدة متعاضدة، إنها هنا تسخر،تنتقد، تنتقم، تفرج، تسري، فهي تنفيس وتفريغ لشحنات انفعالية سالبة. وتأتي النوادر الجحوية في وظائفها الجمالية والإمتاعية تحقيقا للجانب الباسم في مسرح الحياة، باعتبارها رواية هزلية كبرى كما يقال، وغايتها عندئذ التسلية والإمتاع، إماتحقيقا لهذا الجانب الباسم

1عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ص 136

من الحياة (ابتسم تبتسم لك الحياة)، وإما تسرية وترفيها وتفريجا عن بعض كرب الحياة وضنك العيش (شر البلية ما يضحك). وبذلك تمنحنا هذه النوادر قدرا من "التطهير" النفسي الذي يزود المرء أو الجماعة بقوة التحمل والصبر والتفاؤل في خضم الإحباط الفردي أو الجمعي (القومي) وكأنها جرعة إنقاذية وتنشيطية غايتها " تطعيم" الناس ضد واقع محبط، وراهن جارح، وبذلك تضفي هذه النوادرالجحوية على الحياة والواقع قدرا من التجميل الخيالي والتطهير النفسي الذي يحتاجه الناس كثيرا1).

1كامل كيلاني ، تاريخ جحا مجلة الرسالة/العدد 683/،ص52

الفصل الثاني رواية الشطارية ونوادر جحا

المبحث الأول : رواية الشطارية

الرواية الشُطّارية أو الرواية البيكارسكية (بالإسبانية: Novela picaresca) والمعروفة كذلك بالرواية الصّعلوكية»،1 هو جنس أدبي نثري تميز به الأدب الأسباني حيث نشأ في القرن السادس عشر بإسبانيا وازدهر في جميع أنحاء أوروبا الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولا زال يؤثر في الأدب الحديث.

يروي عادات وتقاليد الطبقات الدّنيا في المجتمع ومغامرات الشطار ومحنهم ومخاطراتهم. لذا غالبا ما يكتب بصياغة سيرية روائية واقعية، سواء بضمير المتكلم أم بضمير الغائب؛ لذا تسمى أيضا بالرواية الأوطوبيوغرافية البيكارسكية التي تؤكد مدى اعتماد الرواية على تصوير البعد الذاتي وتجسيد تقاطعه مع البعد الموضوعي. وتتخذ هذه الرواية صيغة هجائية وانتقادية لأعراف المجتمع وقيمه، التي تصفها أحياناً بالزائفة المنحطة بطريقة تهكمية ساخرة، منددة بالاستبداد والظلم والفقر.

1. الدلالات اللغويَّة والاصطلاحيَّة

لم تظهر لفظة "پيكارسكا" picaresca باعتبارها لفظةً إسبانيةً إلا في نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر، قبيل ظهور "الرواية الشطَّارية" الأولى في الأدب الإسباني، المنسوبة إلى روائي مجهول، ألا وهي: حياة لاثاريو دي تورمِس وحظوظه» ومحنه2. وتدل هذه اللفظة على جنس أدبي جديد تشكَّل في إسبانيا لأول مرة، ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا وألمانيا وإنكلترا وأمريكا. وتشير هذه الرواية إلى ذلك المتن السردي الذي يرصد حياة البيكارو أو "الشطَّاري" المهمَّش؛ ولذلك تُنسَبُ إلى بطلها "البيكارو" picaro ("الشاطر" أو "المغامر") الذي يقول عنه قاموس الأكاديمية الإسبانية: "نموذج شخصية خالعة وحذرة وشيطانية وهزلية، تحيا حياةً غير هنيئة كما تبدو في عيون المؤلَّفات الأدبية الإسبانية"؛ أو

1جميل حمداوي (عمرو)، ص ب: 5021، الناظور، المغرب؛ إيميله: jamilhamdaoui@yahoo.fr

2 أصدرها مؤلِّف مجهول سنة 1554 بعنوان: *La vida de Lazarillo de Tormes y de sus fortunas y adversidades*.

هو: "بطل مغامر شطَّاري مهمَّش صعلوك محتال ومتسول»"[1] وتعتقد الأكاديمية الإسبانية أن لفظة picaro مشتقة من فعل picar في معناه الشعبي المجازي، وهو الارتحال والصيد واللَّسع. وتشير صفة picaresque في اللغة الفرنسية إلى الأعمال التي تصف الفقراء والمعوزين والمعدمين والصعالكة والمتسولين والأنذال أو إلى قيم المتشردين والمحتالين واللصوص في القرون الوسطى.

2. تأثُّر الرّواية البيكارِسْكية بالأدب العربي القديم

لم يظهر الأدب البيكارسكي في إسبانيا إلا تأثرًا بالفن الشعبي العربي بالأندلس، ولاسيما مع ظهور طبقة اجتماعية من الشطَّار العرب المسلمين المهمَّشين المشردين الذين آثروا حياة الصعلكة والبطالة والتمرد على قوانين المجتمع والسلطة، وكانوا يعيشون على حافة المجتمع، سواء بالأندلس أم في ربوع أخرى من العالم العربي الإسلامي التي انفتحت عليها إسبانيا. ويصرف هؤلاء "الشطَّار" picaros حياتهم في التسول والارتحال والغناء وممارسة الكدية والاحتيال بقصد الإيقاع بالآخرين من أجل الحصول على المال أو الحب أو لقمة العيش. وكان هؤلاء الصعاليك المحتالون المرحون يسمون في الثقافة الإسبانية بـ"المورو" Moro. وتحضر صورُ هؤلاء كثيرًا في الرواية الشطَّارية الإسبانية. وفي هذا الصدد، يقول أستاذي د. محمد أنقار:

> لم تكن الرواية الشطارية الإسبانية تتبلور، من حيث هي نوع سردي، بعيدًا عن التيارات والأنواع الأدبية، كالغنائية والمسرح الشعري والقصة المورِسْكية والقصة العاطفية أو الرعوية التي حفلت كلها بصور غزيرة للمسلمين والعرب والمغاربة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

1 Cf. *Diccionario enciclopédico*, Espasa 2, Espasa Calpe Madrid, España, 2 K/Z

إلا أن مما يلفت النظر في الرواية الشطارية هو ضآلة صور المورو، على الرغم من أن الظاهرة المورِسْكية لم تكن قد تلاشت نهائيًّا خلال تلك الفترة. ويتعلق الأمر، على الخصوص، بالروايتين النموذجيتين لاثاريو وتاريخ حياة البوسكون»1

3. الخيال البيكارِسْكي في الأدب العربي الحديث

في أدبنا العربي الحديث كثير من النصوص الروائية الشطَّارية، وإن كان أغلبها في المغرب الأقصى. وربما يعود ذلك لتأثر كتَّابها المباشر بالأدب الإسباني. وقد كتب هذه النصوص محمد شكري ومحمد الهرادي والعربي باطما وبنسالم حميش ومحمد زفزاف.

هذا ويصور محمد شكري في روايته الخبز الحافي[2 معاناة شابٍّ ريفي من شدة البؤس والظلم والفقر إبان احتلال الاستعمارين الإسباني والفرنسي للمغرب. لذا اختار التجوال والصعلكة والمغامرات الاحتيالية واللصوصية والعربدة الخمرية والجنسية بحثًا عن لقمة خبز من دون مرق أو إدام. وقد أبدع شكري نصًّا بيكارسكيًّا آخر يكمل سيرته الأولى، ألا وهو الشطار»[3]؛ وهذه الرواية سيرة أوتوبيوغرافية بيكارسكية واقعية، تنقل واقع المنبوذين والمهمَّشين الصعالكة نقلاً مباشرًا وصريحًا، قوامها الصدق الفني والتلقائية والعفوية المطبوعة، وتستند في إيقاعها إلى تشويه الواقع وتعريته بكلِّ وقاحة وفظاظة.

1Juan Hurtado, J. de Laserna y Ángel González Palencia, *Historia de literatura española*, Madrid, 1949, pp. 351-352

2محمد شكري، "مفهومي للسيرة الذاتية الشطارية"، ضمن: *الرواية العربية واقع وآفاق*، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط 1: 1981؛ ص 322.

3\ محمد غنيمي هلال، *الموقف الأدبي*، دار الثقافة/دار العودة، بيروت، 1977؛ ص 55.

المبحث الثاني القناع السياسي والاجتماعي في طرائف جحا :

1- القناع السياسي

لقد تجاذب طرائف جحا تناقض مثير فهي تارة مضحكة بمافيها من سذاجة وبله وغفلة ومرة تضحك بمافيها من ذكاء أونقد سياسي لاذع وماتحمله من أقنعة مضمرة (فقد ترافق جحا مرة مع تاجر وقاض في الطريق، فسأله القاضي: من كثر لغطه كثر غلطه أما لك أغلاط ؟فأجاب جحا: بلى لقد خرج مني مرة (قاض في النار بدل قاضيان في النار ومرة أخطأت فقلت إن التجار بدل (الفجار) لفي جحيم. فأخجل الاثنين)هكذا هي طرائف جحا تقوم على بداهة حاضرة وحاذقة تضمر دوماً نقداً ينطوي على قناع سياسي للتعبير عن المحرم السياسي والاجتماعي في ظل سلا طين الظلم والقمع وتقييد التعبير والرأي ولنلاحظ أن بداية هذه الطرائف ترجع إلى أيام الصراعات السياسية الكبرى وما يرافقها من تعسف وقهر وترهيب تكبت الناس فيروي المؤرخون أنه لما(ورد أبومسلم صاحب الدولة العباسية إبان الصراع المرير بين بني أمية وبني العباس إلى الكوفة قال لمن حوله آيكم يعرف جحا فيدعوه إلى فقال يقطين أنا فذهبت ودعاه فلا دخل مجلس أبومسلم ولم يكن فيه غير أبومسلم ويقطين فوقف جحا وقال يا يقطين آيكما هوأبومسلم.. فضحك أبومسلم مستظفر بلهه وقد حمل البعض هذا الموقف قناعاً سياسياً إذ رؤوا في تصرف جحا دلالة على حسن التخلص بالظرافة من اتهام وجود الحاكم. وبين ما نروي كتب التاريخ قصص عن جحا تدلك على حمقه يرى الآخرون فيها قناعاً سياسياً لمداراة السلطان الجائر فيقول صاحب مجمع الأمثال (أحمق من جحا وهورجل من فزارة مكان يكنى أبا الغصن فمن حمقه أن عيس بن موسى الهاشمي مر به ويحفر بظهر الكوفة موضعاً فقال له1: مالك يا أبا الغصن قال: إني دفنت في هذه الصحراء دراهم ولست أهتدي إلى مكانها فقال عيسى كان يجب أن تضع عليها علامة قال جحا: قد فعلت فسأل عيسى ما هي قال سحابة في السماء تظلها ولست أرى العلامة) وقد علق البعض أن جحا إنما أراد تنبيه عيسى بن موسى الهاشمي إلى استدلا لته الخاطئة في الحكم وعدم تدبره العقل والمنطق في ذلك أن بناء هذه القصة على المصادفة لا

1محمد غنيمي هلال، *النقد الأدبي الحديث*، دار العودة، بيروت، 1973؛ ص 505-506.

تخلومن تأليف مدروس يحقق غاية أن الطرفة إنما كانت قضية ومواراة في التعامل مع السلطان الظالم.ولقد حكى عن جحا الكثير من القصص ما يجعلنا ندرك أن قناع لفلسفة مجتمع كامل فهوحاضر في الأفراح والأتراح والظلم والعدل وكل المواقف التي لا تجمعها إلا مجتمع بأسره ولنلاحظ الغاية التي تنطوي عليه حكاية جحا مع الجريمة قيل (أنه خرج من منزله يوماً بغلس فعثر في دهليز منزله بقتيل فضجر به وجره إلى بئر منزله فألقاه فيها فنذر به أبوه فأخرجه وغيبه وخنق كبشاً حتى قتله وألقاه في البئر ثم أن أهل القتيل كانوا في سكك الكوفة يبحثون عنه فتلقاهم جحا فقال في دارنا رجل مقتول فانظروا أهوصاحبكم فعدلوا إلى منزله وأنزلوه في البئر فلما رأى الكبش ناداهم وقال يا هؤلاء هل لصاحبكم قرن فضحكوا ومروا » 1

لنلاحظ في هذه الحكاية التقاء الذكاء والسذاجة وكأننا أمام مسرحية كوميدية قصيرة تنشد الأضحاك والإيماء معاً. ولوتتبعنا ما يروى عن جحا عبر مراحل زمنية متعددة فإننا سنحظى بالبعد السياسي لنوادره منها هوجحا يدل الناس إلى سبيل التخلص الذكي من بطش تيمورلنك فيمكن أنه لما استولى السفاح على بلاد الأناضول يحضر علماء البلدة وفضلاؤها ويسألهم أنا عادل وأم ظالم فإن أجابوه أنك عادل ذبحهم وأن قالوا أنك ظالم قتلهم فضاق ذرعهم فجاؤوا يقصدون الشيخ لما أشتهر به من الأجوبة السديدة الحاضرة وقالوا له :لا ينقذنا من شر هذا الظالم عيرك فذهب جحا وحضر مجلس تيمورلنك ولما سأله السفاح أجاب أنت لست ملكاً عادلاً ولا باغياً ظالماً لماً فالظالمون نحن وأنتم سيف العدل الذي سلطه الواحد القهار ذوالجلال على الظالمين، وكما أسلفنا تكثر قصص جحا مع الحكام وبراعته في التخلص سخطهم لكن نوادر جحا لم تقف عند البعيد السياسي المباشر بل انطونت على ما ينتجه من أزمات اجتماعية تجعل إنسانها مأزوماً اجتماعياً ووجودياً نتيجة القمع والظلم وقد كثرت هذه الطرائف حتى شاعت الأمثال الشعبية عنه من مثل (ما قاله جحا) وذلك عند استهجان حادثة ما وذلك(جحا يضيع حماره ليجده ويفرح) وهومبنى على حكاية مفاده أن جحا أضاع حماره فأخذ ينادي في السوق : من يجده يأخذه مع بردعته ومقوده فسأله ما الفائدة من وجوده إذا كنت تريد أن تعطيه بطقمه فأجابهم أنكم لا تعرفون لذة وجود المفقود.

1 إسماعيل العثماني، "الأدب الشطاري: تعريف جديد لأدب قديم"؛ ص 131-132.

وهناك حكاية تروى عن جحا في حسن تخلصه من شهادة الزور تقول (غافلوا جحا وأخذوه شاهد زور للمحكمة فادعى المدعى على خصمه بحنطة فلما سأله القاضي قال جحا : أشهد أن لهذا الرجل بذمة هذا الرجل مئة رطل شعير فسأله القاضي حنطة أم شعير فرد جحا (يا سيدي القاضي مادامت الشهادة كاذبة فالحنطة والشعير سيان) أن قصص جحا لا تحص وهي متبدلة حسب الأزمنة والأمكنة وما يتبتدع فيها كون شخصية جحا كما ذهبنا هي صنيعة الحاجة وهي طربوشاً يوارى تحتها رأساً سياسياً يقنع المحرم با الضحك وأن كان هناك من أصول تراثية فإنما هي دلالة على تقلب الشعوب بين فنون القمع والقهر السياسي عبر العصور والأمكنة المختلفة 1

2-القناع الاجتماعي

لجانب النقدى فى نوادر جحا

لو أن مصلحا اجتماعيا – مهما كانت قدراته – ظل طوال حياته ينتقد سلوك الناس وتصرفاتهم لأصابهم الملل ، ولما أطاقوا الإصغاء إليه ، لكن جحا – النابع من قلب التراث الشعبى – قد أدرك هذه الحقيقة المرة ، ولذلك راح ينتقد تصرفاته هو كما ينتقد تصرفات غيره ، ويتحول من بطل رئيسى للحكاية إلى مجرد ممثل مساعد لأحد أبطالها الرئيسيين . وقد استخدم السخرية (Ironie) التى لا تستهزئ بأحد لمجرد الاستهزاء ، وإنما لإبراز الجوانب السيئة فى سلوكه وتصرفاته ، حتى لا يكون نموذجا يقتدى به غيره . وهذه هى السخرية الإيجابية التى استخدمها كبار الأدباء فى العالم2.

1 إسماعيل العثماني ،المرجع السابق ص 508.

2محمد رجب النجار ، جحا العربي ، الطبعة الثانية ، 1989 ، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، ص12.

الجانب النقدى فى نوادر جحا

وتتميز (نوادر جحا) بالبساطة الشديدة التى يمكن أن تصل إلى عقول الناس وقلوبهم دون أن يبذلوا جهدا مرهقا فى استيعابها ، ولذلك فإن مجرد إلقائها عليهم يدفعهم إلى الضحك أو الابتسام ، وتلك هى المرحلة الأولى أو الغلاف الخارجى ، أما المرحلة الثانية فهى التى تترسب فى نفوسهم من واقع الموقف الذى يدين المخطئ المصرّ على سلوكه ، ويتسامح مع الساذج والبرىء .

ومما يميز (النوادر) فى نقدها أنها لا تتجه بالخطاب الوعظى المباشر إلى الناس ، بل انها متضمنه فى مواقف عمليه وحوارية ، بحيث نظهر جحا نفسه أحيانا : غبيا أو متغابيا أو جاهلا أو متعثرا أو سىء الحظ ، وفى المقابل من ذلك يظهر فى أحيان أخرى : ذكيا ، ماكرا ، منتصرًا على خصمه .

كذلك فإن حجم النوادر ، تتراوح بين الاختصار الشديد الذى يشبه الطلقة التى تنطلق بسرعة خاطفة ، وفى كلمات قليلة وبين الإطناب الذى قد يمتد لأكثر من صفحة وهذه الخاصية المزدوجة ترضى كافة الأذواق : هؤلاء الذين يميلون إلى القول الموجز ، وأولئك الذين يفضلون الإطالة.

وكثيرا ما يظهر جحا فى نوادره مصاحبا لحماره . وهنا تفصيل : فأحيانا يبدو الحمار أذكى من جحا ، وأحيانا أخرى أغبى منه ، وفى أحيان ثالثة، كانا يتعادلان . ثم إن الحمار كان يمثل الثروة الوحيدة لدى جحا ، وعندما كان اللصوص يسرقونه ، إما فى غفلة منه ، أو تلاعبًا به ، يقف حائرًا لا يدرى ماذا يفعل ، وقد أصبح معدما ، وضائعا ، بدون الصاحب الوحيد الذى يملأ عليه حياته1.

والحمار – كما هو معروف – هو الحيوان الأقرب للفقير ، والملتصق بحياة الفلاحين والعاملين البسطاء ، وهو الحيوان الذى تجتمع فيه عدة صفات ، بعضها متناقض مثل (القوة

1محمد رجب النجار، المرجع السابق ص13

والخنوع ، والتحمل والصبر ، وعدم الشكوى والتماوت أحيانا ..) والواضح أن جحا بصحبته الحميمة للحوار قد أعاد الاعتبار لهذا الحيوان المسكين الذى كان وما يزال منظورًا إليه بصورة دونية ، على الرغم من الخدمة الشاقة والجليلة التى يقدمها للفلاح بخاصة ، وللفقراء عموما.

لكن النقد السياسى والاجتماعى يظل ساريا بعمق فى (نوادر جحا) ، وبالتالى فإنها تعتبر مادة غنية جدا لمن أراد أن يستخرج منها العديد من العناصر النقدية ، التى تفيدنا حاليا فى فهم سلوك الناس فى المجتمعات السابقة ، والتى ما زال بعضها مستمرًا فى المجتمعات الراهنة حتى اليوم. وأكاد أقول باطمئنان – بعد قيامى بتحليل مضمون للنوادر – إنها فى مجموعها لا يكاد يوجد لها مثيل فى مؤلفات التراث الرسمى ، اللهم إلا فى بعض الأعمال القليلة جدًا ، مثل (البخلاء) للجاحظ ، و(تلبيس إبليس) لابن الجوزى ، و(معيد النعم) للسبكى . والملاحظ أن هذه الأعمال الرائعة ، والمنتمية أساسًا إلى التراث الرسمى ، لم يتوافر لها نفس الشهرة والانتشار الشعبى الذى حظيت به (نوادر جحا. (

ونظرًا لأننى أخصص هذا البحث لمغزى (نوادر جحا) فى مجال النقد الاجتماعى ، وبصفة خاصة فى نقد بعض الممارسات الدينية الخاطئة ، فسوف يكون من المناسب أن أقدم بين يديها بنبذة مختصرة للتعريف بأهم المناصب والوظائف الدينية التى نشأت وتطورت واستمرت فى المجتمعات الإسلامية ، منذ أواخر الدولة الأموية ، وطوال عهد العباسيين ، وما تلاه من عهود المماليك والعثمانيين. ومن هذه المناصب والوظائف:

قاضى القضاه ، وكان يعين من قبل الخليفة شخصيا ، ويصبح مسئولاً عن تعيين سائر القضاة فى مختلف أقاليم الخلافة أو الدولة. »1

1 علي الراعي، *شخصية المحتال في المقامة والحكاية والرواية والمسرحية*، "كتاب الهلال"، العدد 412، أبريل 1985.

M. Tarchouna, *Les marginaux dans les récits picaresques arabes et espagnols*, Publications de l'Université de Tunis, [9] 1982p.54

القاضى ويكون عادة من الفقهاء ويتقاضى راتبه من الدولة ، ويختص ببلد معين ، ويفصل فى القضايا التى تنشأ بين الناس ، ويرد الحقوق لأصحابها، كما يوثق عقود الزواج والطلاق ، ويوزع الميراث بين المستحقين.

إمام المسجد وهو الذى يؤم المصلين ، ويكون متواجد دائمًا فى المسجد، ويتقاضى راتبه من الدوله ، كما يرجع إليه المسلمون فى المسائل الدينية الخاصة بشروط العبادات ، وقواعد المعاملات.

المؤذن وهو شخص معين أيضًا ، ويشترط أن يكون ذا صوت جهورى، ويستحسن أن يكون نديّا ، يرفع الأذان خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويبدو أنه كان يشرف على شئون المسجد ، وإقامة الصلاة فى حال غياب إمام المسجد.

الواعظ وهو شخص يتصدى من تلقاء نفسه لوعظ الناس فى المسجد ، وتكون لديه مقدرة على البيان ، وأسلوب متميز فى الإقناع واستمالة المستمعين بشتى الوسائل ، ومنها ايراد الحكايات المشوقة ، وأحيانا الأحاديث النبوية دون التثبت تمامًا من صحتها.

القاصّ وهو شخص محترف فى فن القص ، وايراد الحكايات التى قد تمتد لعدة حلقات ، وهو يستخدم الأساطير ، ويداعب خيال المستمعين . وتكون مكافأته منهم على قدر إجادته لشد انتباههم بكل ما هو رائع وغريب[1].

علماء الكلام وهؤلاء كانوا من المتخصصين فى علم العقيدة وأصول الدين ، وكانت مهمتهم فى البداية : الدفاع عن الإسلام ضد خصومه من أهل الديانات الأخرى ، ثم أصبح بأسهم فيما بينهم ، وتحولوا إلى فرق متصارعة ، جذبت كل منها عددًا من المسلمين المتعصبين لآرائهم .

1علي الراعي،المرجع السابق ، ص55.

الصوفية وهؤلاء بدأوا بالدعوة إلى الزهد فى الدنيا ، والعزلة ، وطرح الخلاف ، ثم ظهر من بينهم شيوخ مؤثرون ، اجتذب كل واحد منهم العديد من الاتباع ، وأصبحت له (طريقة) عرفت باسمه ، ولها اجتماعات خاصة وسنوية، وأسلوب خاص فى الفكر والأوراد .

تلك هى أبرز المناصب والوظائف والجماعات التى كانت تمثل الجانب الدينى فى حياة المجتمعات الإسلامية . وترجع أهميتها إلى أنها كانت ذات تأثير واضح فى حياة الناس اليومية ، كما كان رموزها قريبين جدًا من العامة ، الذين استطاعوا بذكائهم الفطرى أن يميزوا فيهم بين الجيد والردىء ، بين الصادق والمنافق ، بين الحريص على الصالح العام والساعى إلى تحقيق مآريه الشخصية1.

لذلك كان من الطبيعى أن نتوطد العلاقة بين عامة الشعب وممثلى الجانب الدينى ، وأن تخرج من قلب هذه العلاقة بعض الملاحظات التى لم تكن تجرؤ أن تعبر عن نفسها إلا فى شكل نوادر مضحكة ، وأن تنسب إلى شخصية شعبية لا يمكن الإمساك بها ، أو محاكاتها مثل شخصية جحا ، التى كانت تطير فى الجو مثل شخصية أصحاب النكته الحاليين فى مصر ، وسائر البلاد الأخرى .

لقد وردت (نوادر جحا) مشتملة على قيام جحا بتقمص وظيفة أو منصب أحد الرموز الدينية ، وأحيانا بإجراء محاورة مع واحد منهم ، وذلك بهدف إبراز سلبية معينة فى سلوكه وتصرفاته التى تتنافى مع سماحة الدين الإسلامى ، أو تتناقض مع انضباط قواعده . كذلك فإن النوادر تشتمل أيضا على مدى الجهل بأبسط شروط العبادات ، وخاصة لدى العامة ، وهو الأمر الذى يشير إلى أن الكثير من هؤلاء لم يكونوا يستوعبون جيدا ما يلقيه عليهم علماء الدين من معارف ومعلومات2.

وهكذا كتب على جحا – كما كُتب على سيزيف فى الأسطورة الاغريقية – أن يتحمل وحده عبء تلك المسئولية الاجتماعية والسياسية الخطيرة ، وكان من عجائب القدر أن أولئك

1حميد لحماني، *الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي*، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1: 1985؛ ص 60.

2محمد أنقار، *بناء الصورة في الرواية الاستعمارية*، مكتبة الإدريسي، تطوان، ط 1: 1994؛ ص 87

الذين انتقدهم جحا فى نوادره اللاذعة لم ينجحوا أبدًا فى محوها من تاريخهم ، لأنها كانت قد استقرت فى أعماق التراث الشعبى ، الذى سارع باحتضانها وتداولها خفية وعند الضرورة فقط، ولو أنها كانت قد دونت فى أوراق التراث الرسمى لسهل على المتنفّذين محوها ، وإحراق الأوراق التى كتبت فيها ، كما حدث لبعض المفكرين المعارضين والفلاسفة.

القسم الثانى : نماذج من النوادر ومغزاها الاجتماعى

فى هذا القسم سوف أقوم باختيار عدد محدود من النوادر ، ذات الطابع الاجتماعى ، والتى تنتقد سلوكيات أشخاص ذوى وظائف دينية ، كما تنتقد مستوى الجهل لدى عامة الشعب بتعاليم الشريعة الإسلامية ، مع محاولة إبراز المغزى الحقيقى لهذه النوادر ، وهو الأمر الذى يجعل التراث الشعبى يتوازى ويتكامل مع التراث الرسمى ، وبهذا التكامل يمكننا الاقتراب كثيرًا من فهم واضح للمجتمعات السابقة ، ومزيد من فهم المجتمعات الحالية1 .

جحا واعظا:

·قام فى أحد الأيام واعظا ، فقال : أيها المسلمون ، احمدو الله الذى لم يخلق للجمال أجنحة ، لأنها لو استطاعت الطيران لهبطت على أسطح بيوتكم فخربتها على رؤوسكم!

والمغزى هنا يتعلق مباشرة بمضمون الخطاب الدينى ، المقتصر فقط على الترهيب دون الترغيب ، والذى ينتهجه بعض الدعاة لاستثارة خوف المسلمين بدلاً من طمأنتهم ، وبث السكينة فى نفوسهم . والعجيب هنا أن جحا لا يستعين ببعض العناصر الدينية التى تثير الخوف مثل التذكير بأهوال يوم القيامة ، وعذاب القبر ، بل إنه يلجأ إلى الاستعانة بخياله الخاص الذى يفترض أن الله تعالى قد يخلق للجمال الكبيرة الحجم أجنحة تستطيع الطيران بها ، لكنها عندما تفعل ذلك سوف تسقط بالضرورة على بيوت المسلمين فتهدمها فوق رؤوسهم! وهكذا بدلاً من أن ينبه الدعاة سائر المسلمين إلى السنن الإلهية التى وضعها الله

1سامر محيي الدين ، موسوعة قصص وطرائف ونوادر العرب، ص 257، الطبعة الأولى ، 2004، دار عالم الثقافة، الأردن،ص142.

فى الكون ، وسخره لهم بها، فيحمدوه عليها ويشكروا له – فإنهم يقومون بتخويفهم من عذاب الله وانتقامه منهم!

·جلس جحا يومًا على منصة الوعظ فى أحد الجوامع ، وقال:

–أيها المؤمنون ، هل تعلمون ما سأقوله لكم ؟

–كلا ، لا نعلم.

–لو كنتم لا تعلمون ، فما الفائدة من الكلام ؟!

ثم نزل ، وعاد فى يوم آخر ، وألقى عليهم نفس السؤال ، فقالوا:

–أجل ، نحن نعلم.

–ما دمتم تعلمون ما سأقوله ، فا الفائدة من الكلام ؟!

فتحير الحاضرون ، ثم اتفقوا فيما بينهم أن ينقسموا إلى فريقين:

أحدهما يقول : نعلم ، والآخر يقول : لا نعلم.

فلما جاء فى المرة الثالثة طرح عليهم سؤاله الأول ، وهنا انقسمت الأصوات ، فقال:

حسن جدًا ، من يَعلم يُعلّم من لا يَعلم!

والمغزى هنا ينصب على العلاقة الجدلية التى يتبغى أن تكون قائمة بين الواعظ والجمهور ، وهى التى تبدأ بضرورة معرفة الواعظ الدقيقة بحاجة الجمهور إلى نوع المعرفة وطبيعة المعلومات التى يقدمها له . فما الفائدة فى أن يعرض على الجمهور معلومات سبق له معرفتها ؟ ألن يكون هذا نوعًا من التكرار الذى يؤدى إلى الملل ، وبالتالى الانصراف واللامبالاة ؟ إن الداعية إذا لم يأت فى كل مرة بجديد يُدهش المستمعين فإنه لن يصل أبدًا إلى جذب انتباههم، وبالتالى إلى التأثير المطلوب فيهم . كذلك فإن مراعاة أحوال المستمعين

– التى أفاض فيها علماء البلاغة العربية – تغيب عادة عن الدعاة الذين قد يحثون الفقير على الصدقة ، بينما يدعون الغنى إلى الصبر على شظف العيش1!

جحا مؤذنا:

·كان يؤذن ، ثم يجرى مسرعا ، فسألوه عن السبب ، فقال:

–أريد أن أعرف إلى أين يصل صوتى!

والمغزى هنا أن بعض المؤذنين يتم تعيينهم فى هذه المهمة الدينية على أساس ارتفاع أصواتهم فقط ، دون أن تكون لهم حصيلة دينية كافية ، وخاصة فى باب العبادات من علم الفقه ، حيث يتطلب وجوده الدائم فى المسجد تلقى أسئلة المسلمين المتعلقة بشروط الوضوء والصلاة والإجابة الصحيحة عليها . لكن جحا هنا يزيد الأمر سوءا فيصور المؤذن بأنه شخص ضعيف العقل ، فمن من العقلاء يجرى بعد رفع صوته لكى يعلم المدى الذى وصل إليه ؟2!

·وفى صباه ، سافر جحا من قريته إلى المدينة ، فسمع المؤذن يؤذن من فوق مناره عالية ، فظنه يستغيث ، فناداه من الأسفل:

–ماذا أصنع يا عمى ، فقد صعدت شجرة عالية لا غصن لها ، وكيف أصعد إليك وأنقذك ؟

والمغزى هنا أن بعض بناة المساجد يبالغون أحيانًا فى تشييدها ويعملون على ارتفاع مناراتها إلى الحد الذى قد لا يتبين الناس صوت المؤذن من أعلاها، وهذا ما جعل جحا – وهو صبى صغير – يظن أن المؤذن يستغيث ، بدلاً من أن يدعو للصلاة ؟!

مع إمام مسجد:

1سامر محيي الدين،ص143.

2إسماعيل عثماني، "الأدب الشطاري: تعريف جديد لأدب قديم"، *آفاق*، عدد مزدوج 62/61، السنة 1999؛ ص 131–132.

ذهب جحا مع بعض أصحابة يتنزهون فى البرية ، وبعد تناول الطعام ، قام كل منهم إلى حوض كبير فغسل يديه ، وحدث أن إمام مسجد الحىّ زلفت رجله فى قاع الحوض . وكلما حاول الحاضرون أن ينقذوه قائلين له (هات يدك) لم يعطها لهم ، وأخيرًا تقدم جحا وقال لهم : دعونى أنقذه ، فهو لن يسمع كلامكم لأن صنف الأئمة لم يعتادوا على كلمة (هات) بل كلمة (خذْ) .. ثم مد يده إلى الإمام وقال له (خذ يدى) ففى الحال قال الإمام : (الله يرضى عليك يا أخى) وأمسك بعضده فخرج سالما!

والمغزى هنا اجتماعى ودينى فى أن واحد . وهو مصرح به "فصنف الأئمة – على حد قول جحا – لم يتعودوا أن يقال لهم : هاتوا ، وإنما يقال لهم: خذوا" وقد جاء هذا التصريح فى إطار موقف درامى ، بدلاً من الحديث عنه بأسلوب خبرى ، الأمر الذى يجعل فكرته تستقر فى الأذهان ، ويسهل استدعاؤها لمن يريد أن يستدل على بخل بعض الفقهاء ، وعدم المساهمة بأموالهم فى خدمة المحتاجين ، مع دعوتهم المسلمين إلى أهمية الصدقة والتبرعات!

إن ظاهرة بخل الفقهاء تستحق بالفعل الاستقراء ، لمعرفة مدى اتساعها، تمهيدًا بعد ذلك للوقوف على أسبابها ودوافعها . وفى رأيى أن بعضها يرجع إلى نشأة الكثير منهم فى الفقر المدقع ثم تحولهم بفضل العلم والوظيفة التى يحصلونها به إلى حال مناقضة تماما من بحبوحة العيش ، وإقبال من الحكام والعامة على السواء ، ولذلك يكون حرصهم على الثروة أشد ، بل إنه يزداد إلى حد البخل بها على المساكين والمحتاجين ، الذى يكتفون بدعوة سائر المسلمين إلى الرفق بهم ، والإحسان إليهم!

جحا قاضيا:

عندما كان قاضيا جاءه رجل وقال:

–إن ثوركم الأحمر نطح بقرتنا فى بطنها فقتلها.

–وما دخل صاحب الثور ؟ هذه دعوى دم ، لا يطالب بها حيوان.

–عفوًا أيها القاضى .. لقد أخطأت فى عرض القضية.

فالحقيقة أن بقرتنا هى التى نطحت بطن ثوركم فمات ؟

عندئذ اعتدل القاضى جحا ، وقال:

–اذن لقد أشكلت المسألة . فهات هذا الكتاب ذا الجلد الأسود من على الرف ، لأنظر فيه حول تحديد الضرر ، وتقييم الغرامة ، وعقوبة عدم دفعها ؟

والمغزى هنا يتصل مباشرة بازدواج المعايير ، وتفاوت الأحكام فى القضية الواحدة . فعندما علم القاضى أن ثوره هو الذى قتل بقرة الرجل لم تظهر منه أى بادرة للحل ، بل إنه قرر على الفور انها "دعوى دم لا يطالب بها حيوان!لكن حين عاد الرجل فعرض القضية من جديد ، وخلاصتها أن ثوره هو الذى قتل بقرة القاضى ، اعتدل القاضى فى جلسته ، وطالب بالاطلاع على المراجع (القانونية) الموجودة على رف المكتبة ، بغرض النظر فى تحديد الأضرار ، وتقييم الخسائر ، وتغريم صاحب البقرة التى قتلت الثور ! وهكذا اختلف الحكم تماما ، وانقلب من النقيض إلى النقيض1 .

جحا مساعدًا لقاض:

·تبرز كلب فى وسط الطريق بين جاريْن ، فتنازعا حول مَنْ منهما يزيل براز الكلب. وذهبا إلى القاضى لعرض القضية عليه ، وكان جحا حاضرا ، فقال له القاضى:

–احكم أنت بينهما يا جحا – قاصدًا بذلك إحراجه.

فسأل المتنازعين عن الموضع الذى تبرز فيه الكلب ، فأجابا بأنه فى منتصف الطريق بينهما تماما.

فقال لهما:

1عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ص 136

–انصرفا ، فليس عليكما شئ ، وإنما المسئولية على القاضى لأن الحادثة وقعت فى الطريق العام!

والمغزى هنا واضح تماما . فإن بعض المنازعات التى تحدث بين الأفراد يمكن أن تكون من مسئولية الحكومة ، وهى هنا خاصة بالطريق العام ، الذى لا يمتلكه الأفراد ، ولهذا حسم جحا الحكم فى القضية ، ولا شك أنه تحرى العدل فى ذلك ، ولعله لو ترك ذلك القاضى يحكم فيها لأوقع الغرامة على أحد الخصمين أو عليهما معا.

لكننا لابد أن تستثنى نموذج هذا القاضى والذى قبله من مجموع قضاة المسلمين الذين كانوا يحكمون بالعدل ، ويتحرون الدقة قبل إصدار الأحكام ، كما كانوا يفحصون جيدا حال الشهود ، ويستبعدون شهود الزور بل ويعاقبونهم.

جحا والتنطع فى الدين:

·كان رجل يغتسل فى بحيرة ، وعندما شاهد جحا ، سأله:

–قل لى يا شيخ .. إذا كان الإنسان يغتسل فإلى أى جهة يجب أن يوجه وجهه ؟

فأجابه جحا على الفور:

–إلى الجهة التى فيها ثيابه!

المغربى : أن هناك الكثير من الناس ليس لديهم أدى معرفة أحكام الشريعة ، وخاصة فيما يتعلق – بأداء الفرائض والواجبات اليومية ، ولو أنهم كانوا يقرأون ، أو يسألون العلماء المتخصصين لتخلصوا من جهلهم غير المبرر . وبالطبع قد يظن بعض هؤلاء أن التشدد فى الدين هو الأصل ، مع أن الدين يسر لا عسر فيه ، ولذلك راح هذا الرجل يسأل عن أى اتجاه يتخذه وهو يغتسل فى البحيرة ، وكانت إجابة جحا قاطعة ، حولته من الاهتمام بهذه الجزئية التى لا أصل لها – إلى الحفاظ على ثيابه خوفًا من أن يسرقها لص ، ويترك الرجل يعود إلى بيته عاريا بدون ثياب!

جحا والتسول بالدين:

·أحد القرويين ترك التكسب بعمل يده ، واحترف التسول ، وكان يلح فى طلباته من أصحاب البيوت ، ولا يتركهم حتى يأخذ شيئا من طعامهم أو ملابسهم.

وذات يوم ، دق باب جحا ، ففتحت له زوجته ، فسألها : أين زوجك ؟

قالت : إنه فوق السطح . فقال لها : نادى عليه لينزل . فلما فعلت ، نزل جحا متضررا وسأل الرجل : من أنت ؟ قال : أنا ضيف الله . فأمسك جحا بيده ، وسار به حتى بلغا الجامع الكبير ، وعند الباب ، التفت إليه قائلا : يا أخى لقد طرقت بابنا على سبيل الخطأ ، وهذا بيت الله يا ضيف الله!

والمغزى هنا يتمثل فى أن احتراف التسول مع القدرة على العمل يعد من الأمور المشينة التى لا يرضى بها دين ولا خلُقُ . وأسوأ أنواعه ذلك الذى يستغل الدين لاستخراج المال ممن يعملون ويكدحون . ومن المعلوم أن الإسلام يحث أتباعه على مساعدة الفقير ، وليس على معاونة مَنْ يدعى الفقر ، لأن فى ذلك تشجيعا له على ترك العمل ، وعدم السعى لطلب الرزق.

أما أسلوب جحا فى رد هذا المتسول الثقيل فهو نموذج جيد لأنجع الأساليب فى ردعه وأمثاله عما يقومون به . وبدلاً من تقديم النصح له فى كلمات أو صرْفه مع الدعاء له بالتساهيل ، أخذه جحا فى مشوار طويل حتى جامع البلدة ، الذى هو بيت الله ، ما دام قد ادعى أنه : ضيف الله1!

1عباس محمود العقاد،المرجع السابق ،ص137.

خاتمة عامة

خاتمة

ولا شك في هذه الحقيقة أيضًا من الوجهة التاريخية إذا رجعنا إلى عصرتيمورلنك وأشباهه في تواريخ المشرق والمغرب، فليس أحفل بالأضاحيك من عصور التقلب وعصور الشدائد والأهوال.

وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة في النوادر الموضوعة تنبئنا عن زمانها الذي فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات.

فمنذ القرن السادس للهجرة) والثاني عشر للميلاد (هبطت المعرفة من ذروة الكرامة، وأصبح العارف الأريب من يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق »بحرفة الأدب « والتشبه بالجهلاء وأصحاب الجدود من ضعاف العقول، وشاع القول مغنية عن القول ببؤس العالم الأديب.

في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريري التي يجمع بطلها بين البؤس والبلاغة والبراعة في الحيلة، وفيها تواتر النظم في شكوى الزمان مقرونة بشكوى الأدب والعجب »الإنشائية « من قسمة الأرزاق، وهذه هي الناحية الأدبية من تلك الشكايات وتلك الحيل أو الفنية .وأما الناحية الاجتماعية العامة فآيتها هذه النوادر التي تعد بالمئات ولا تظهر فيها براعة اللبيب الأريب إلا في الاحتيال على أكلة أو في الاحتيال على دفع المحتالين الطامعين في قوته الهزيل.

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الأرزاق يسأل فيها جحا من ندبوه للقسمة هل يريدون قسمة لله أو قسمة العبيد، فلما حكَّموه في توزيع الحظوظ بينهم على قسمةلله أعطى هذا ما لم يعط ذاك وفاوت بينهم أكبر المفاوتة في الأقسام .وما كانت هذه لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من » الجحويات « النوادر لتشيع بين العامة من رواة

بعيد.

((النتائج)) :

تعرفنا من خلال هذه الورقة أن جحا هو ..أبو الغصن دجين بن ثابت الفزاري.

النوادر الجحوية كما مرّ علينا في ورقتنا هذه ليست بالضرورة صادرة عن جحا نفسه ، إنما حصيلة إبداع شعبيّ عابر للعصور.

ممارسة الحريّة في النقد الاجتماعي و السياسي هو بمثابة السبيل للتغلب على أوجاع ومتاعب الواقع المعيش ، فكان جحا هو الرمز.

التراث الجحوي ترك بصمات واضحة في المنطوق الشفهي البحرينيّ كما العربيّ بلا انفصال عنه من خلال بعض الأمثال المحلية التي تم ذكرها.

))الــتوصـيات -:((

أهمية توسيع رقعة البحث العلميّ في شخصية جحا بغية إنارة جوانب كثيرة غير معروفة عن هذه الشخصية وذلك عن طريق تحقيق وشرح كتب التراث و التاريخ التي لم يُلتفت إليها بعد .

ضرورة إعادة إنتاج التراث الجحوي بما يتوفر من أدوات العصر الراهن ، كأن يتم إنتاج مسلسلات درامية ترسخ شخصية جحا في أذهان العامة أو تحويلها لشخصية كرتونية تعكس الأبعاد التربوية لفائدة الطفل العربي ولتكون بديلا عن الإنتاج الأجنبي.

تقع على عاتق الجهات الثقافية العربية مسؤولية عقد مؤتمر سنوي يركز جلّ مبحثه العلمي و الثقافي على هذه الشخصية و تحفيز الباحثين و المهتمين بعمل بحوث و دراسات معمّقة ، بحيث نقدّم جحا للعالم كنموذج لشخصيّة العربيّ الضاحك و المحب للحياة على نقيض صورة الإرهابيّ المتعطش للدم كما يروج الخطاب الإعلاميّ الغربيّ.

بذل جهود حثيثة في الترجمة لتعريف مختلف ثقافات العالم بشخصية جحا و اعتباره رمزا ثقافيا وخير سفير للعالم العربي.

إفساح المجال لاعتبار شخصية جحا " تميمه " على شكل دمية يتم إطلاقها ضمن المهرجانات التراثية و السياحية كي ما تنشر الفرح و السعادة وتؤكد حضورها في الأذهان في أوساط العامة.

محاولة جمع ما يتوفر من التراث الشعبيّ الخليجيّ الذي تمحوّر حول شخصية جحا من حكايات و نوادر بغية توثيقها ونقلها من محيطها الشفاهيّ إلى حيز التدوين.

تفعيل مهرجانات مسرحية (كوميدية) تستقي مضمونها الفني من شخصية جحا لتحفظ حضورها في أذهان الجماهير العربية ضمن معالجات فنية حديثة في إيقاعاتها تصبّ في خلق مسرح متمسك بالتراث العربي يخفف من وتيرة العروض الاستهلاكية التي لا ترتقي بذائقة المشاهد العربي.

قائمة المراجع والمصادر

المراجع باللغة العربية

1. إسماعيل العثماني، "الأدب الشطاري: تعريف جديد لأدب قديم"
2. إسماعيل عثماني، "الأدب الشطاري: تعريف جديد لأدب قديم"، *آفاق*، عدد مزدوج 62/61، السنة 1999؛
3. جعفر الديري ، جحا عاش في البحرين ، صحيفة الوطن – العدد 3304 السبت 27 ديسمبر 2014،
4. حامد طاهر ، نوادر جحا– تراث شعبى ونقد اجتماعى ، نسخة الكتروني
5. حسن السبع ، وين إذنك يا جحا ! ، العربية ، الأربعاء 08 جمادى الأولى 1434هـ – 20 مارس2013م
6. حميد لحماني، *الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي*، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1: 1985
7. سامر محيي الدين ، موسوعة قصص وطرائف ونوادر العرب، ، الطبعة الأولى ، 2004، دار عالم الثقافة، الأردن .ص 257
8. سامر محيي الدين ، موسوعة قصص وطرائف ونوادر العرب، ص 257، الطبعة الأولى ، 2004، دار عالم الثقافة، الأردن،
9. عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت
10. عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت
11. عباس محمود العقاد ، جحا الضاحك المضحك ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ص 136
12. علي الراعي، *شخصية المحتال في المقامة والحكاية والرواية والمسرحية*، "كتاب الهلال"، العدد 412، أبريل 1985.
13. علي هاشم ، أنتروبوس –الضحك والفكاهة الشعبية – مقاربة ،: الموقع العربي الأول في الأنثروبولوجيا والسوسيوأنثروبولوجيا .
14. محمد أنقار، *بناء الصورة في الرواية الاستعمارية*، مكتبة الإدريسي، تطوان، ط 1: 1994؛
15. محمد رجب النجار ، جحا العربي ، الطبعة الثانية ، 1989 ، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

16. محمد رجب النجار ، جحا العربي ، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، 1989 ، ص 17
17. محمد شكري، "مفهومي للسيرة الذاتية الشطارية"، ضمن: *الرواية العربية واقع وآفاق*، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط 1: 1981
18. محمد غنيمي هلال، *الموقف الأدبي*، دار الثقافة/دار العودة، بيروت، 1977
19. هاشمي سعيد يسرد جزايرس، شخصيات شعبية جحا رمز الدهاء ، نشر يوم 09 – 07 – 2012، محرك بحث أخباري" الكتروني.
20. هشام بنشاوي ، بلاغة السخرية في تراثنا العربي ، دراسات ، مجلة البحرين الثقافية ، العدد 84 ، ابريل 2016.

المراجع باللغة الأجنبية

La vida de Lazarillo de Tormes y de sus fortunas y adversidades
Cf. *Diccionario enciclopédico*, Espasa 2, Espasa Calpe Madrid, España, 2 K/Z
Juan Hurtado, J. de Laserna y Ángel González Palencia, *Historia de literatura española*, Madrid, 1949, pp. 351-352

المواقع الالكترونية :

1. حامد طاهر ، نوادر جحا– تراث شعبى ونقد اجتماعى ، نسخة الكترونية .
2. اقرأ المزيد من عدن الغد | جحا بين السياسة والتهريج http://adengd.net/news/30854/#ixzz4HhilX5001
3. حياة الياقوت ، مقال" يا جحا أين أذنك؟" والوقوع في فخ الإيقاع !، دار ناشري للنشر الالكتروني،ص70.
4. المسيلة نيوز ، قصص قصيرة http://www.almiseelanews.com/?cat=148 /
5. عبدالله الهدلق ، الحمار رمز الفلسفة والحكمة الإنسانية ، الوطن – موقع تلفزيون الوطن http://alwatan.kuwait.tt/articledetails.aspx?id=187579 .
6. أحمد علي عولقي عدن الغد | جحا بين السياسة والتهريج http://adengd.net/news/30854/#ixzz4Hhh8elKO
7. كامل كيلاني ، تاريخ جحا مجلة الرسالة/العدد 683/،ص52
8. جميل حمداوي (عمرو)، ص ب: 5021، الناظور، المغرب؛ إيميله: jamilhamdaoui@yahoo.fr